(عيد الصليب)

فوضعتِ كالأرض ظهرِك

تحتفل الكنيسة يوم ١٧ توت الموافق ٢٨ سبتمبر بعيد الصليب المجيد. وعلى الرغم من احتفالنا بهذا العيد المجيد مرتين كل عام إلا أن الجلوس تحت الصليب، والتأمل فيه، والترنم ببركاته هو عمل الأبدية ذاتها وشغلنا الشاغل فيها. ومن أجمل العبارات التي جاءت على فم أشعياء النبي: "هأنذا قد أخذت من يدِك كأس الترنح ثفل كأس غضبي. لا تعودين تشربينها في ما بعد. وأضعها في يد معذبيكِ الذين قالوا لنفسِك انحني لنعبر فوضعتِ كالأرض ظهرِك وكالزقاق للعابرين" (أش٥٢: ٢٢-٢٣). وكأن هذا هو صوت الرب العذب الذي سيسمعه من فمه المبارك كل الذين حملوا الصليب كل يوم بشكر وهم على أعتاب السماء بعد مغادرتهم الأرض.

"**انحني لنعبر**" هو غاية كل صليب يوضع على الإنسان. انحناء النفس هذا هو الذي اختبره القديسون على مر العصور، والذي عبّر عنه داود النبي في مزموره قائلاً: "لماذا أنت منحنية يا نفسي ؟ ولماذا تئنين فيّ ؟" (مز٤٢:٥)، ثم عاد وصرخ إلى الله في نفس المزمور قائلاً: "يا إلهي نفسي منحنية فيّ" (مز٤٢:٦). ألم يوضح السيد المسيح هذا الترابط الوثيق بين انحناء النفس والصليب عندما قال: "إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني" (مت١٦:٢٤)؟ الصليب هو إذاً مدرسة الإتضاع التي يلحقنا بها الروح القدس. إلا أننا ينبغي علينا أن نعلم جيداً أن جهادنا لن يتكلل بشكل قانوني، ولن يعلن الرب اجتيازنا مدرسة الصليب بنجاح ما لم نصل لمرحلة: "وضعتِ كالأرض ظهرك وكالزقاق للعابرين". والسيد المسيح ذاته لم يجتز هذه المدرسة بنجاح فقط بل وبتفوق أيضاً حيث تكلم داود النبي على لسانه قائلاً: "على ظهري حرث الحراث. طوّلوا أتلامهم" (مز١٢٩:٣) وكلمة طوّلوا هنا توضح تفوق السيد المسيح الذي ترنم به القديس غريغوريوس في قداسه قائلاً: "بذلت ظهرك للسياط".

لقد قال أحد القديسين أن الإتضاع نوعان: إتضاع نسكي، وإتضاع إلهي. الإتضاع النسكي هو في الحقيقة ناتج عن جهاد الإنسان في الدخول من باب النسك الضيق، وحمل الصليب بكل أشكاله. ولكن مهما جاهد الإنسان، حتى لو جاهد حتى الدم، يبقى اتضاعه ناقصاً. فما لم يشرق عليه وجه الرب ويترائى له النور الإلهي لن يصل إلى كمال الإتضاع. هذا هو النوع الثاني من الإتضاع الذي هو الإتضاع الإلهي. إنه يعني أن يرى الإنسان حقيقته

ويدركها عندما يعاين النور الإلهي. الصليب هو إذاً معمل الإتضاع النسكي، والإتضاع النسكي هو الذي يجذب النعمة الإلهية لتشرق على الإنسان فيقتني عندئذ الإتضاع الإلهي.

أيا حامل الصليب، يا من نفسه منحنية فيه افرح لأن هذا هو طريق اتضاعك. ويا من صرت مُداساً من كل أحد حتى وضعت كالأرض ظهرك وكالزقاق للعابرين تهلل فهوذا نجاتك وإكليلك قد اقتربا. عيد الصليب هو عيدك يا من تتشبه بسيدك باذلاً ظهرك للسياط ومسلماً إياه للحراثين المطوّلين أتلامهم.